آثار بدر

قويت شوكة المسلمين بالمدينة بعد غزوة بدر

كانت غزوة بدر عميقة الأثر فى نفوس المسلمين، وفى نفوس أعدائهم من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب؛ وكان لانتصار المسلمين فيها دوى بعيد المدى فى نواحى الجزيرة العربية..

فأما المسلمون فى المدينة فقد اشتدت سواعدهم وقويت شوكتهم وازداد يقينهم بأن الله معهم، فأصبحوا لا يبالون بقوة أعدائهم، ولا يخشَوْن أحداً إلا الله. كذلك ثَلِجت صدور المستضعفين فى مكة بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الخلاص قريب، فازدادوا إيماناً على إيمانهم وثباتاً على عقيدتهم. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أشد اغتباطاً بهذا النصر، وأكثر تفاؤلا وأملا فى المستقبل؛ ولكنه لم يُغْفِل من حسابه قط أن الأعداء يحيطون به من كل جانب، وأنهم يتربصون به الدوائر ويتحينون له الفرص؛ منهم من يريد الانتقام والأخذ بثأره، ومنهم من يريد أن يشفى غليل نفسه وغيظ قلبه،

ومنهم من يدفعه إلى ذلك الحقد والبغى والحسد. من أجل ذلك ظل رسول الله ﷺ وأصحابه على رِقْبة وحذر، يعدون عدتهم ويهيئون أمرهم، حتى لا يدعوا لعدو من أعدائهم فرصة.

وتظاهر المنافقون بالإسلام وقاية لأنفسهم

وأما المشركون من أهل المدينة فقد رأى أكثرهم أن محمداً وصحبه أصبحوا قوة يُحسبُ حسابها، وأن المستقبل قد يكون لهم؛ ولكنهم لم يكونوا على ثقة من اطراد هذا النصر وضمان ذلك المستقبل، فأخذوا يعيدون النظر فى موقفهم على ضوء الحوادث، ويتساءلون فيما بينهم: أيظلون على شركهم وعداوتهم للإسلام؟ أم يسلمون كمن أسلم من أهل المدينة، فيتقون بذلك عداوة هذا الدين الذى أخذ نجمه فى الظهور؟ إنهم يخشَوْنَ إن ظلوا على عدوانهم وشركهم، أن تكتسحهم قوة الإسلام وتطأهم أقدامه، ولكنهم فى الوقت نفسه يخشون أن يكون هذا النصر فَوْرةً وقتية، ولمحة عارضة يعود الإسلام بعدها إلى الضعف، ويعود المسلمون إلى الاستكانة، فلا يكونون بإسلامهم قد كسبوا شيئاً، إلا عداوة جيرانهم من اليهود، وعداوة إخوانهم فى الدين من مشركى قريش وغيرهم.

ماذا يفعلون إذن؟ لقد رأوْا أن أسلم طريق يتقون به

عداوة الفريقين أن ينافقوا: ﴿إذا لَقُوا الذينَ آمنُوا قالُوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شَياطِينِهم قالوا إنَّا مَعَكم، إنَّما نحْن مُسْتَهْزِئون﴾[1]، يتظاهرون بالإسلام مع المسلمين، ويبطنون الكفر مع الكافرين؛ وبذلك يُمسكون العصا من الوسط، ويميلون مع الريح حيث تميل. وهكذا أسلموا ظاهراً فدخلوا فى عداد المسلمين، وكفروا باطناً فظلوا فى عداد الكفار. وقد استطاعوا بذلك أن يقفوا على كثير من أسرار المسلمين، وأن يمالئوا بها أعداء الإسلام كلما وجدوا فرصة سانحة، وكان على رأس هذه الطائفة عبد الله بن أُبَيّ.

وقد وقع المسلمون من أمر هؤلاء المنافقين فى حيرة بالغة؛ فلا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم حتى يعاملهم المسلمون معاملة الأعداء، ولا هم مسلمون مخلصون فى إسلامهم حتى يطمئنوا إليهم: ﴿مُذَبْذبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[2]. ومن أجل هذا الموقف الخداع شنَّع الله عليهم، وسمَّع بهم فى كثير من آيات القرآن الكريم، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب فقال سبحانه: ﴿إنَّ المنافِقينَ فى الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّار ولن تَجدَ لَهُم نَصيراً﴾[3]، وجعل

(١) سورة البقرة الآية ١٤.
(٢) سورة النساء الآية ١٤٣.
(٣) سورة النساء الآية ١٤٥.

عقابهم إليه وحده، لأنه هو الذى يعلم سرهم ونجواهم، ويكشف نياتهم الخبيثة ومظاهرهم الخادعة، إذ كانوا من خداع المظهر بحيث كان يخفى كثير من أمرهم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى قال سبحانه لرسوله فى ذلك: ﴿وممَّن حَوْلكم من الأعْراب مُنافقُون ومنْ أهْل المَدينة مَرَدُوا على النِّفاق لا تَعْلمهُم نحن نَعْلمهُم سَنُعَذِّبهُم مرَّتين ثم يُردُّونَ إلى عذابٍ عظيم﴾[1].

ويرى الأستاذ محمد عزت دروزه - فى كتابه «سيرة الرسول» ﷺ أن ما جاء فى القرآن الكريم من وصف هذه الطائفة بوصف «المنافقين» فى بعض الآيات، وبوصف ﴿الَّذين فى قُلوبهم مَرض﴾ فى بعضها الآخر، ومن اجتماع الوصفين معاً فى آية واحدة، ومن تفاوت الشدة فى الحملات وتنوع الصور.. مما يسوِّغ القول بأن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين: واحدة كافرة كل الكفر، عدوة كل العداوة، ماكرة كل المكر؛ وأخرى ضعيفة النفس مريضة القلب، تميل مع المنفعة، وترغب عما تسميه مشاكل ومخاطر ومجازفات، ويأخذها شيء من الشك والتردد فى طاعة الله ورسوله طاعة تامة، وتنحاز أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها أو تقع فى شباكها وتندمج معها.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠١.

وأيًّما كان أمرهم فإنهم كانوا ألد أعداء الإسلام، وأشدهم خطراً عليه؛ وكان هدفهم الذى يرمون إليه ويعملون له دائماً، هو القضاء على الإسلام وعلى أهله. من أجل ذلك كانوا يتحيَّنون كل فرصة للإيقاع به والنَّيْل منه، وكانت وسائلهم لذلك متعددة وأساليبهم مختلفة؛ «فكانوا يجهَدُون لإضعاف الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى، ويعملون لشق جماعتهم، ويحاولون الغض من جلال الرسالة ليهون شأنها فى قلوب الناس، ويتصلون شرًّا بأعداء الإسلام فى الداخل والخارج للقضاء عليه. أما الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكان يقبل منهم ظاهر أمرهم ويترك إلى الله سرائرهم، ويشفق عليهم من إثم ما هم فيه، ويكتفى بأن يشعرهم بفطنته التى لا يروج لديها نفاقهم، ولا يوقع بهم من الأذى أكثر من وصف مجموعتهم بالجبن وتفاهة القدر، دون أن يعرض لأشخاصهم بشىء»[1].

وسنرى خلال سرد الحوادث فيما يلى كثيراً من وقائعهم وأحاديثهم، وكثيراً من مواقف الريبة التى كانوا يقفونها من رسول الله ﷺ ومن جماعة المسلمين.

---

(١) تذكرة الدعاة، للأستاذ البهى الخولى.

وجاهر اليهود بالعداوة حسدًا وكمدًا

أما اليهود فقد حَزَّ فى نفوسهم أن ينتصر المسلمون وتقوى شوكتهم فى المدينة، وأن يَعزَّ الإسلام ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله دونهم الحُظْوَة والمكانة. وكان صلى الله عليه وسلم يطمع فى إيمانهم أكثر مما كان يطمع فى إيمان المشركين؛ لأنهم أهل دين يدعو إلى التوحيد كما يدعو الإسلام إليه، وأهل كتاب يصدِّقُ القرآن كثيراً مما جاء به، وأهل علم يؤمنون بمنطق العقل ويحتكمون إليه. ولكن حرصهم على المكانة الدينية التى كانوا يستمتعون بها، وعلى المنافع العاجلة التى كانت تجلبها لهم هذه المكانة، دعا أحبارهم ورؤساءهم إلى حسد الرسول والطعن فى رسالته، وإلى مناوأة الإسلام والأخذ فى عداوته. وقد ظلت نفوسهم تغلى بالعداوة سرًّا حتى رأوا أمر الإسلام يستعلى بعد غزوة بدر، فلم يُطيقوا بعدها إسرار العداوة، وأخذوا يستعلنون بها ويجاهرون. ومنذ ذلك الحين أخذت العلاقة بين اليهود والمسلمين تنقلب إلى عداء ظاهر، وأخذ هذا العداء يتطور ويستحكم، وأخذ اليهود يكيدون للإسلام ويأتمرون به، ويعملون للقضاء عليه بكل ما يستطيعون من وسيلة.

وكان أول ما ظهر من بوادر هذه العداوة، أنهم جزعوا أشد الجزَع حين بلغهم نبأ انهزام قريش فى وقعة بدر، حتى قال قائلهم كعب بن الأشرف: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس.. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبطنُ الأرض خير من ظهرها»!! ونقضوا عهد المسالمة الذى عاهدوا عليه رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة؛ فانطلق شعراؤهم يستهزئون بالمسلمين، ويهوِّنون من شأن انتصارهم فى بدر، ويهجون رسول الله وينالونه بالكلام القارص والفعل الساخر.

كان بنو قينقاع أول من جاهر المسلمين بالعداوة

وكان بنو قَيْنُقاع أول من جاهر بالعداوة؛ إذ كانوا أشجع يهود، وأقربهم إلى المسلمين منازل؛ فقد كانوا يسكنون بين المسلمين فى وسط المدينة؛ أما بنو النضير وبنو قُرَيْظة فكانت مساكنهم فى أرباض المدينة وأطرافها. من أجل ذلك كان بنو قينقاع أظهر اليهود عداوة للمسلمين وأكثرهم احتكاكاً بهم ومخالطة لهم، وكان من أشد اليهود مجاهرة بالعداوة وتطاولا على المسلمين: كعب بن الأشرف. وكان كعب شاعراً من شعرائهم وسيداً من سادتهم، فجعل يستهزئ بالمسلمين، ويشبِّب بنسائهم، ويهجو رسول الله ﷺ ويحرض على قتله؛ كما جعل يُشِيد بأشراف قريش. ويتفجع على قتلاهم، ويظهر الولاء والإخلاص

لهم. ولم يكفه أن فعل ذلك بالمدينة، بل ذهب إلى مكة يحرض على رسول الله، ويُنشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب، ويستثير حمية قريش لتأخذ بثأرها وتسترد هيبتها.

وهكذا أصبح الجوّ بين المسلمين واليهود مشحوناً بالعداوة، وأصبحت النفوس مليئة بالثورة، وأصبح أى عمل من أعمال الاستفزاز كافياً لأن يشعل نار الحرب بين الفريقين. وكانت الشرارة التى أشعلت هذه النار، حادثة امرأة مسلمة ذهبت إلى سوق بنى قينقاع، فجلست فى حاجة لها عند صائغ من صاغتهم، فانتهك أحد اليهود حرمتها بفَعْلة تؤذى الكرامة وتثير الغَيْرة؛ فاندفع أحد المسلمين إلى اليهودى فقتله، فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه؛ وتنادى المسلمون واليهود، وأوشك الأمر أن يكون مذبحة، لولا أن رسول الله ﷺ تغلب بحكمته على إطفاء هذه الشرارة.

وقد دعا رسول الله ﷺ رؤساءهم، فحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد، وقال لهم: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم». فتجهَّموا له وقالوا: «يا محمد، أرأيت أنَّا قومُك؟ لا يغرنَّك أن لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة! إنا - والله - لئن

حاربناك لتعلمَنَّ أنا نحن الناس»!! قال ابن إسحاق: وكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

غزوة بنى قينقاع

أصبح الأمر إذن يختلف عما كان من قبل، وأصبح بنو قينقاع أعداء بعد أن كانوا أولياء، بل أصبحوا هم الذين يدعون بأنفسهم إلى الشر، ويدفعون بأقوالهم وأفعالهم إلى الحرب لا إلى السلام. فهل يأمن المسلمون جانبهم بعد هذا؟ وهل يطمئنون إليهم وريح الحرب بينهم وبين قريش لا تزال تملأ الجوّ؟ وأنزل الله على رسوله قوله سبحانه: ﴿وإمَّا تخَافَنَّ من قومٍ خيانةً فانْبِذْ إليهم عَلَى سَوَاءٍ، إن الله لا يحبُّ الخائنين﴾[1]. وهؤلاء قد بدت الخيانة فى أعينهم، فنقضوا عهودهم التى عاهدوا رسول الله عليها، وأخذوا يتحرشون به وبأصحابه، ويتلمسون الأسباب لإثارتهم وغيظهم؛ وأصبحوا ولا أمان لهم وهم يجاورون المسلمين فى مساكنهم، ويخالطونهم فى أعمالهم، ويعرفون كثيراً من دخائلهم، ويطلعون على كثير من أسرارهم؛ فلم يكن بُدٌّ إذن من عمل حاسم يؤَمِّن المسلمين

(١) سورة الأنفال الآية ٥٨.

شرهم. وهذا ما عمله رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد نبذ إليهم عهدهم، فصارحهم بالعداوة وأنذرهم بالحرب، فاعتصموا بحصونهم؛ فحاصرهم رسول الله ﷺ وأصحابه خمسةَ عشرَ يوماً، لا يصل إليهم طعام ولا شراب ولا مدد ولا معونة. وكان بنو قينقاع حلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبيّ؛ فتبرأ منهم عبادة بن الصامت، حين أظهروا ما كانوا يضمرون من العداوة؛ أما عبد الله بن أبي فقد ظل على ولائه لهم، ولم يبرأ من حلفهم كما برئ عبادة بن الصامت، وكان يقول: «إني امرؤ أخشى الدوائر ولا آمن الزمن».

لكنه لم يغن عنهم شيئاً، ولم يستطع أن يقدم لهم أي معونة وهم في حصارهم هذا. كذلك لم يقدم لهم إخوانهم اليهود أي معونة، ولم يأت لنجدتهم أحد لا من بني النضير ولا من بني قريظة؛ ولعل هذا مما يؤكد خيانتهم، ويؤيد أنهم هم الذين بَغَوْا وظلموا، ودَعوا إلى الحرب بنقضهم الميثاق، ومجاهرتهم بالعداوة، ومناوأتهم للرسول وصحبه.

فلما طال عليهم الحصار وعجزوا عن المقاومة بأنفسهم أدركهم الرعب؛ فسألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، على أن يخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، ولرسول الله وصحبه الأموال والسلاح. وقبل رسول الله ﷺ ذلك، وأمهلهم ثلاثة

أيام، ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت؛ فرحلوا إلى «أذْرِعات» من بلاد الشام؛ وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، وكانت شيئاً كثيراً، لأنهم كانوا صاغة يشتغلون فى صياغة الذهب والفضة، وكانوا أكثر رغبة فى اقتناء السلاح. فاحتجز رسول الله ﷺ الخمس من هذه الغنيمة لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ووزع الباقى على أصحابه.

وكانت غزوة بنى قينقاع فى منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة، وقد خلّف رسولُ الله ﷺ فيها على المدينة أبا لُبابة الأنصارى، وجعل اللواء فيها إلى عمه حمزة بن عبد المطلب. وهكذا أُجلى بنو قينقاع من المدينة، بسبب بغيهم ومبادأتهم بالعداوة.

مقتل كعب بن الأشرف

أما كعب بن الأشرف، فقد عاد من مكة أشدَّ ما يكون عداوة للرسول، صلى الله عليه وسلم، وأفحشَ ما يكون لساناً فى نساء المسلمين، حتى ضاق به صدر رسول الله ورغب فى الخلاص من شره؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لى بابن الأشرف»؟ فقال له محمد بن مَسْلَمَة الأنصارى: «أنا لك به

يا رسول الله.. أنا أقتله». قال: «فافعل إن قدرت على ذلك».. فقال: «يا رسول الله، إنه لا بد لنا من أن نقول». قال: «قولوا ما بدا لكم، فأنتم فى حِلّ من ذلك». فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عيسى بن جبر، وسِلْكان بن سلامة - وهو أبو نائلة - وكان أخا كعب من الرضاعة.

قال ابن إسحاق: «ثم قدموا إلى عدو الله كعب بن الأشرف قبل أن يأتوه أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشدوا شعراً. وكان أبو نائلة يقول الشعر. ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف! إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتُمْ عنى. قال: أفعل؛ قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء! عادتْنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة[1]، وقطعت علينا السبل حتى ضاع العيال، وجُهدت الأنفس، وأصبحنا قد جُهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف! أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول.. ! فقال له سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا ونَرْهَنك[2] ونوثق لك، وتحسن فى ذلك. قال: أترهنونى

---

(١) أى تجمعت علينا وتكتلت ضدنا.

(٢) نرهنك: أى نبيع لنا ونرهن لك.

أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا؛ إن معى أصحاباً على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك، ونرهنك من الحَلْقة[1] ما فيه وفاء - وأراد سلكان ألا ينكر السلاح إذا جاءوا بها - قال : إن فى الحلقة لوَفَاء.

(قال) فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعون إليه. فاجتمعوا عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. (قال) : ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغَرْقد، ثم وجههم فقال : « انطلقوا على اسم الله؛ اللهم أعنهم » ! ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته وهو فى ليلة مقمرة. وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه؛ فهتف به أبو نائلة - وكان حديث عهد بعُرْس - فوثب فى مِلْحفَته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة.. ! قال : إنه أبو نائلة، لو وجدنى نائماً لما أيقظنى. فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر ! (قال) : يقول لها كعب : لو يُدْعَى الفتى لطعنةٍ لأجاب. فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه، ثم قالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شِعب العجوز، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال : إن شئتم. فخرجوا يتماشوْن، فمشوا ساعة. ثم

---

(١) الحلقة : السلاح.

إن أبا نائلة شام يده فى فَوْد رأسه[1] ثم شم يده فقال: ما ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط! ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن. ثم مشى ثم عاد لمثلها، فأخذ بفَوْدَى رأسه[2] ثم قال: اضربوا عدو الله فاختلفت عليه أسيافهم»..

هذه قصة كعب كما رواها ابن إسحاق، وقد رواها غيره من كتاب السيرة بما لا يخرج فى جوهره عن روايته. وأكثر المستشرقين الذين كتبوا فى سيرة الرسول ﷺ يفسرون مقتل ابن الأشرف بأنه «اغتيال قام على الغدر»، ويتخذون من ذلك مطعناً على رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فأما المغالون منهم فيطلقون فى رسول الله أقلامهم بما شاء لهم التعصب الممقوت؛ وأما المعتدلون فيكتفون بالغمز قائلين: إن هذا الحادث كان نقطة سوداء شوهت تاريخه الأبيض الناصع.

أى الفريقين جنح إلى الغدر؟

ونحن لا نرى بأساً من أن نجاريهم - ولو إلى حين - فى تسميته «اغتيالا»، لأنه كان أخذاً على غرة، وأن نجاريهم كذلك فى أنه «قام على الغدر»؛ ثم نسألهم بعد ذلك: هل وقع هذا

(١) وضعها فى مقدمة شعره من ناحية.

(٢) أخذ بشعره من الجانبين.

الاغتيال على عدو أو على وَلِىّ؟ وهل كان هذا العدو محارباً أو مسالماً؟ وأى الفريقين سلك طريق الغدر بصاحبه؟ وأى الفريقين بادى بالعداوة وجاهر بها، ونقض عهد الموادعة الذى عقد بينهما؟ وأى الفريقين عرّض بصاحبه وحرّض عليه وأخذ فى جمع العدو لمحاربته؟ وأى الفريقين بدأ يفكر فى اغتيال صاحبه؟

هذه أسئلة تحتاج إلى الجواب المنطق، الذى يعتمد على حقائق التاريخ ووقائعه الصادقة، وعلى أساس هذا الجواب نستطيع الحكم فى قضية ابن الأشرف.

وأى الفريقين نقض عهد المسالمة؟

لقد أجمع الرواة على أن رسول الله وادع اليهود حين قدم المدينة، وكتب بينه وبينهم عهدًا على أن يسالموه ويسالمهم، وأن يدعوه ودينَه ويدعهم ودينهم، وألا يظاهروا عليه عدوًّا، وأن يكونوا مع المسلمين يدًا واحدة على من دهم يثرب أو حارب أهلها. وقد نشر ابن إسحاق نصوص هذا العهد فكان مما جاء فيه: أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وأن النصر للمظلوم. وأنه لا تُجار

قريش ولا من نصرها. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم. وأن الله جارٌ لمن بَرّ واتقى».

ولقد كان فى هذا العهد ضمان كاف لأن يعيش اليهود مع المسلمين فى أمن وسلام، إذ كانت نصوصه صريحة واضحة فى بيان ما لكل فريق من الحقوق وما عليه من الواجبات، وكان الأساس الذى قام عليه هو التعاون والتناصح، والإخلاص والمسالمة، والتناصر على كل ظالم ومعتد. وقد نص فى الميثاق على قريش بالذات، لأنها كانت العدو الحاضر الذى ظاهر المسلمين بالعداوة وبادأهم بالعدوان؛ كذلك نص الميثاق على مبدأين مهمين، كانا كفيلين وحدهما بضمان السلام الداخلى بين اليهود والمسلمين: أولهما «أن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»، وثانيهما «أن من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته».

فهل كان اليهود مخلصين فى النصح والنصيحة للمسلمين؟ وهل كانوا يدعون للبر دون الإثم؟ إن الله العليم بأسرار النفوس ليشهد عليهم بغير هذا، إذ يحذر المؤمنين فى هذه الفترة من الاطمئنان إليهم والثقة بهم، فيقول سبحانه: ﴿يا أيُّها الَّذين

آمنوا لا تَتَّخذُوا بطانةً من دُونِكم لا يَألُونكم خَبَالا، وَدُّوا ما عَنِتُّم، قد بدت البَغضاءُ من أفواههم وما تُخفى صدُورُهم أكبر، قد بَيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاءِ تُحبُّونهم ولا يحبونكم، وتؤْمنون بالكتابِ كلِّه، وإذا لَقُوكم قالوا: آمنَّا، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأنامل من الغَيْظ؛ قل: موتوا بغيظِكم، إنّ الله عليمٌ بذاتِ الصُّدور * إنْ تَمْسَسْكم حسنةٌ تَسُؤْهم وإن تُصبْكم سيِّئةٌ يَفْرحوا بها، وإن تصبروا وتتَّقُوا لا يضرُّكم كَيدهُم شيئًا، إن الله بما يعملون مُحيطٌ[1].. فى هذه الآية تصوير بالغ الدقة لنفسية اليهود وما تخفى صدورهم من كوامن الحقد والعداوة للمسلمين.

فإذا تركنا القول ونظرنا إلى العمل، وجدنا أعمال اليهود كلها مصدقة لهذا الوصف، وإلا فما الذى كان يغيظ اليهود من انتصار المسلمين على قريش فى وقعة بدر؟ ألم يكن ذلك أجدر أن يسرهم، لأنه نصر لحلفائهم وجيرانهم، وأقرب الناس إليهم دينًا وعقيدة؟ لكنها العداوة التى امتلأت بها نفوسهم فجعلت تفيض ثم تفيض، حتى نطقت بها ألسنتهم، وصرحت بها جوارحهم.. أليسوا بذلك قد نقضوا العهد بينهم وبين رسول

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١١٨ - ١٢٠.

الله ﷺ، وصاروا فى عداد أعدائه، بعد أن كانوا - ولو بظاهرهم - فى عداد أوليائه؟

وأى الفريقين جاهر بالعداوة؟

وكعب ابن الأشرف، ما الذى جعله يذهب إلى قريش وهو يعلم أنها أعدى أعداء المسلمين؟ ألم ينص الميثاق الذى بينه وبين رسول الله ﷺ على أنه لا تجار قريش ولا من نصرها؟ ولكنه مع هذا ذهب إلى مكة، لا لِيندُب قتلى قريش فحسب، بل ليستثير حميَّتهم على رسول الله وعلى المسلمين.. إن الروايات كلها مجمعة على ذلك، وبعض الروايات تقول: إنه قدم المدينة يعالن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب، ولم يخرج من مكة حتى أجمع رأيها على قتال رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وبعضها يقول: إنه حالف قريشًا عند أستار الكعبة على قتال المسلمين؛ وبعضها يقول: إنه صنع طعامًا وواطأ جماعة من اليهود على أنه يدعو النبى إلى الوليمة، فإذا حضر فتكوا به.. هذا عدا ما ظهر به من التحدى السافر لجماعة المسلمين، من التشبيب بنسائهم وانتهاك حرماتهم.. ألم يكن كل هذا معالنة بالعداوة، ومبادأة بالغدر، وخروجًا على الميثاق؟ ألم يخرج كعب بهذه الفعال من زمرة الأولياء إلى زمرة الأعداء؟ بل إنه قد

خرج بها من زمرة الأعداء المسالمين إلى زمرة الأعداء المحاربين، وزج بنفسه فى ذلك الأتون طائعًا مختارًا، دون سبب ملجئ من جانب المسلمين يدفعه إلى ذلك. فهو إذن عدو محارب تجيز الشرائع كلها قتله؛ وإن فى قول زوجه له وهى تمنعه من الخروج ليلة مصرعه، ما يؤكد أنه كان يعلم أنه عدو محارب للمسلمين. والحرب خدعة، فأى بأس فى أن يحتال عدو لعدوه فى الحرب فيقتله؟ ألم يكن كعب حريصًا على قتل صاحبه؟ ألم يكن يريد أن يحتال ليقتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟

كعب هو الذى قتل نفسه

لقد كان فى بعض هذه الأسباب ما يبرر قتل كعب، فكيف وقد أطلق لسانه بالفحش فى أعراض المسلمات، حتى آذى المسلمين وأثار حفائظهم؟ أليس كل هذا من الظلم ومن الإثم اللذين حرمهما العهد بين اليهود والمسلمين؟ ألم ينص العهد على أن «من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم»؟ فماذا يكون الظلم والإثم إذن إن لم يكونا فى نقض العهود، ومظاهرة العدو، والتآمر على قتل الأبرياء، ورمى المحصنات الغافلات المؤمنات؟

روى المقريزى فى إمتاع الأسماع: أن اليهود لما جاءوا إلى

رسول الله ﷺ يشكون مقتل كعب قال لهم: «إنه لو قَرَّ كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا بالأذى وهجانا بالشعر».. فهذا دليل على أنه لم يقتل لأنه عدو، بل لأنه عدو غير مسالم، نقض العهد وظاهر الأعداء وآذى الأولياء، فقتله إذن جائز فى كل الشرائع وقوانين الحرب.

ويحاول بعض المؤرخين[1] أن ينفى عن رسول الله ﷺ علمه بالخطة التى دبرت لاغتيال ابن الأشرف. ولست أرى داعيًا لهذا التخلص، فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى تلمس الأعذار؛ فما ابن الأشرف إلا عدو حانق، بالغ فى إظهار عدوانه وشره، وأعلن الحرب على رسول الله وصحبه؛ فكل قوانين الحرب تجيز لرسول الله أن يتخلص من شره. وما دامت الحرب خدعة فقد احتال الرسول للأمر، حتى يحقن كثيرًا من الدماء. وحتى يقتصر الأمر على سفك دم المجرم الأثيم وحده. وأيهما كان خيرًا.. أن يسلك الرسول طريق الحيلة حتى يفتك بشخص واحد، أم أن يعالن بقتله فيثيرها حربًا شعواء بين المسلمين واليهود؟ وسواء باشر الرسول الأمر بنفسه أم أمر به أصحابه. وسواء علم بتفاصيل الخطة أم لم يعلم بها، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالعمل ووافق على المبدأ، ويكفى أن المقتول كان عدوًّا محاربًا

(١) هو الأمير محمد على زعيم الطائفة الإسماعيلية بالهند.

خطرًا، وأن الخطة التى يسمونها اغتيالا كانت شرًّا أريد به درء شر أكبر وأعظم.

فليكن الأمر «اغتيالا» كما يقولون، وليكن «قائماً على الغدر» كما يقولون أيضًا، فهو اغتيال لم يكن منه بد. وكان قيامه على الغدر الذى بدأ به كعب وسعى إليه سعيًا، فكان كالساعى إلى حتفه بظِلْفه.

مقتل أبى عفك وعصماء بنت مروان

وكما استغل المستشرقون حادثة كعب بن الأشرف بالتشنيع على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، استغلوا بعض حوادث من هذا القبيل وردت فى بعض كتب السيرة، كحادثة أبى عَفَك، وحادثة عصماء بنت مروان. ومع أن هذه الحوادث بطبيعتها تتنافى مع روح الإسلام ومبادئه، ومع أخلاق الرسول وأصحابه، فإن بعض كتاب السيرة من المحدثين أخذوها كما هى دون أن يناقشوها، ودون أن يعرضوها على مسلك الرسول فى معاملة الضعفاء. ونحن ننقل هاتين الحادثتين من كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل، ونعقب عليهما برأى الأمير محمد على فى كتابه «محمد رسول الله»، ثم نناقشهما بعد ذلك..

قال الدكتور هيكل فى الفصل الرابع عشر من كتابه:

"وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشوْن مواطنيهم من أهل المدينة، فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم. فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبى عفك (أحد بنى عمرو بن عوف)، لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم، وظل كذلك بعد بدر يغرى بهم الناس. فذهب إليه سالم فى ليلة صائفة كان أبو عفك نائماً فيها بفناء داره، فوضع سالم السيف على كبده حتى خش فى الفراش..

"وكانت عصماء بنت مروان (من بنى أمية بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه، وظلت كذلك إلى ما بعد بدر، فجاءها يومًا عمير بن عوف فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها نيام ومنهم من ترضعه؛ وكان عمير ضعيف البصر فجسَّها بيده فوجد الصبى ترضعه فنحاه عنها، ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها".

الإسلام لا يجيز قتل الضعفاء

وقد فنّد الأمير محمد على هذه الروايات، بنفى فكرة الاغتيالات من أساسها فقال: "كان اليهود أهل كتاب، وكانت

علاقة المسلمين مع أهل الكتاب أرق وأرحم من علاقتهم مع الوثنيين؛ فكيف يختار محمد أن يوجه اغتيالاته المزعومة إلى أهل الكتاب، الذين اقترنت أسماء أنبيائهم فى القرآن بالثناء الوافر والتقدير العظيم؟ ولِمَ لم توجه هذه الاغتيالات إلى الوثنيين من عبدة الأصنام، الذين اضطهدوه وعذبوه ثلاثة عشر عامًا كاملة فى مكة، والذين تعقبوه إلى المدينة للقضاء عليه وعلى الإسلام"؟..

ثم قال: "لم يكن الشعر وَقْفًا على اليهود، بل إن العرب كان لهم السهم الوافر فى ذلك الميدان، ولطالما استخدموا الشعر فى النيل من أعدائهم بالسخرية والهجو؛ وقد نظم الوثنيون أشعارًا عديدة هجَوْا بها الإسلام أضعاف ما فعل اليهود".. إلى أن قال: "ما كان من المعقول أن يأمر النبى بقتل اليهود من أجل أشعار لم ترضه، وهو الذى أوصى أصحابه بالصبر على المكاره، وتحمل العذاب والاضهاد وعدم المُثْلَة". ثم ذكر آية من القرآن نزلت فى هذه الفترة تحثُّ المؤمنين على الصبر، وعلى احتمال ما يلاقون من أذى أهل الكتاب والمشركين، هى قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فى أموالِكم وأنفُسكم ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قَبْلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا وإن تصبروا وَتتقُّوا فإن ذلك من عَزْمِ الأمور﴾[1]. وقال: "إن القرآن أصدق من الرواة

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٦.

الذين ذكروا هذه الروايات، وما كان النبي ليخالف أمرًا صريحا جاء به القرآن".

ولا يجيز قتل النساء والأطفال

ثم استعرض حالات الاغتيال التي ذكرت في روايات ابن هشام والواقدي وابن سعد فكذبها، ودلل على كذب الرواية في مقتل عصماء بنت مروان بما ورد في الأحاديث الصحيحة، من نهي الرسول ﷺ عن قتل النساء ولو اشتركن في القتال اشتراكًا فعليًا ضد المسلمين، وذكر ما أورده البخاري عن ابن عمر من أنه «وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان». ثم قال: "فهل من المعقول أن النبي الذي يأمر بعدم قتل النساء المشتركات في الحرب يأمر بقتل امرأة، لا لشيء إلا لأنها قالت شعرًا يكرهه المسلمون؟".

كذلك فنَّد رواية مقتل أبي عفك، بأن رسول الله ﷺ كما حرم قتل النساء حرم قتل الأطفال والطاعنين في السن؛ حتى كان هذا مبدأ سار عليه المسلمون في حروبهم، ووصية يوصي بها الخلفاء قوادهم في الغزوات.

ولا يجيز قتلا يتنافى مع المروءة

على أن الذى ينظر فى تفاصيل هذين الحادثين، ويتأمل فى الطريقة التى تم بها القتل - ولا سيما فى مقتل عصماء بنت مروان - يقشعر بدنه من قسوة هذه الطريقة، ومن تنافيها مع المروءة والشهامة التى عرف بها العرب حتى فى جاهليتهم، وما كان النبى وصحبه إلا عربًا قبل أن يكونوا مسلمين؛ فكيف إذا اجتمعت إلى شهامة العرب فى قلوبهم، رقة الإسلام وسماحته وأخلاقه ومبادئه الكريمة؟ ولنضرب لذلك مثلا واحدًا من الحوادث التى وقعت فى هذه الحقبة من تاريخ المسلمين: فقد ذكر البخارى فى مصرع خُبيْب بن عَدِى وأصحابه يوم الرَّجيع، أن خبيبًا لما اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الحارث - وكان هو الذى قتل الحارث يوم بدر - مكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسَى من بعض بنات الحارث يستَحِدُّ بها فأعارته. قالت: "فغَفَلْت عن صبى لى، فدَرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه. فلما رأيته فزعت فَزْعةً عرف ذلك منى وفى يده الموسى، فقال: "أتخشَين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله" فلو أن موقفًا كان يجيز للمسلم أن يغدر ويغتال، لكان خبيب فى موقفه هذا أجدر

الناس بذلك. ولكنه الإسلام يمنع أهله من الغدر، ويتكرم بهم عن مواقف الضعف الخلق الذى تأباه الشهامة وتنكره المروءة! فهذا خلق المسلم الحق وهو فى أشد المواقف حاجة إلى الغدر، وأكثرها دفعًا إلى الغيلة.

وهناك حوادث أخرى ذكرها المستشرقون وحاولوا استغلالها على طريقتهم، ولكنا سنتركها إلى حينها، مكتفين الآن بما بينّا من مبادئ الإسلام وروحه العالية فى معاملة أعدائه، وسنواصل الكلام فى آثار بدر، لنرى ما كان من أثرها فى أهل مكة.

كان حزن قريش بالغًا على هزيمتها فى بدر

لم تكن قريش تقدِّر قط هذه النهاية التى انتهت إليها وقعة بدر، ولم يكن يدور بخلدهم أن محمدًا وهو فى هذه القلة من أصحابه، ينتصر على قريش فى كثرتها وعتادها. فلما أن بلغهم النبأ المشئوم ذهلوا له، وظنوا أن الرسول الذى جاء ينعى إليهم أشرافهم قد أصيب فى عقله فهو يُهذِى، حتى قال صفوان بن أمية لأصحابه وهو قاعد فى حِجْر الكعبة: "إن يَعْقِلْ هذا فاسألوه عنى"! فسألوه: ما فعل صفوان بن أمية؟ فقال: "ها هو ذا جالس فى الحجر. وقد - والله - رأيت أباه وأخاه، حين قتلا"؛ وحتى إن أبا لهب لم يُطِق احتمال الخبر، فمرض ومات بعد سبعة أيام.

وناحت قريش على قتلاها نحو شهر، ثم خشيت أن يشمت المسلمون بهم فكفوا عن النواح، ولكن قلوبهم ظلت تطفح بالحزن على صرعى بدر، وتغلى بالغيظ على محمد وصحبه، ولم يكن يُبْرِد لوعة هذا الحزن ولا يطفئ جذروة هذا الغيظ، سوى الانتقام من هؤلاء الصَّبَأة. من أجل ذلك لبست قريش كلها ثوب الحداد، فجز النساء شعورهن وخاصمن أزواجهن، وغدا الرجال شُعْثًا غُبْرًا يسودهم الوجوم والصمت، وتعلوهم الكآبة والفتور؛ وأصبحت قريش كلها ولا هَمَّ لها إلا أن تثأر من محمد وصحبه. وتزعَّمت هند بنت عتبة وزوجها أبو سفيان بن حرب هذه الحركة؛ فأما هند فقد هجرت مضجع أبى سفيان وحرمت على نفسها الطيب، حتى تأخذ بثأر أبيها وأخيها وعمها وأهل بيتها؛ وأما أبو سفيان فقد أقسم لا يمس رأسه ماء حتى ينتقم لقريش ويسترد لها مكانتها وهيبتها بين العرب.

قريش تحاول أن تغطى موقفها بغزوة السويق

فلما كان شهر ذى الحجة - أى بعد بدر بنحو شهرين ونصف شهر - خرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش، فجاءوا بنى النضير يومًا، فطرقوا حيى بن أخطب ليستخبروه من أخبار رسول الله ﷺ وأصحابه، فأبى أن يفتح لهم، فطرقوا

سلّام بن مِشْكَم، ففتح لهم وأكرمهم وسقاهم، وأخبرهم من أخبار رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما كان بالسَّحَر خرج أبو سفيان حتى مر «بالعُرَيض» - على نحو ثلاثة أميال من المدينة - فقتل به رجلا من الأنصار وأجيرًا له، وحرّق أبياتًا هناك وتبنًا؛ ورأى أن يمينه قد حَلَّت ثم ولى هاربًا. فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنَدَب أصحابه، وخرج فى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار فى أثرهم يطلبهم. وجدّ أبو سفيان وأصحابه فى الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم فيُلقون جُرُب السَّويق وهى عامَّة أزوادهم؛ فجعل المسلمون يأخذونها ولم يلحقوهم. ورجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، وكان غاب عنها خمسة أيام، واستعمل عليها أبا لبابة بشير بن عبد المنذر. وقد وقع المسلمون فى هذه الغزوة على سويق كثير، فسميت «غزوق السويق».

ولم تبلغ قريش من هذه الغزوة مأربًا، بل كان رجوعها على هذا النحو من الفرار شرًّا من الهزيمة؛ فباتت تعد عدتها لغزوة أكبر، تسترد بها كرامتها وهيبتها بين العرب. ولم تكن الكرامة وحدها هى التى دعت إلى ذلك، بل كانت هناك ضرورة حافزة تدعو إليه، هى تأمين تجارتهم إلى الشام؛ فقد غدا الطريق المألوف غير مأمون الخطر، بعد أن وقف المسلمون لهم فيه بكل

مرصد، وكان لابد لهم أن يعملوا عملا لتأمينه، وإلا فما كان هناك بد من أحد أمرين: إما أن يجازفوا بأموالهم فى هذا الطريق فيعرضوها للضياع والتلف، وإما يسلكوا بها طريقًا آخر، وفى ذلك ما فيه من المشقة والعنت، ومَظِنَّة الهلاك فى متاهات الصحراء ونجودها المترامية. ولقد حاولوا أن يجربوا حظهم مرة فى طريق آخر، فكانت النتيجة فى هذا الطريق أسوأ منها فى الطريق الأول.

قريش تعدل بتجارتها إلى طريق العراق

فقد وقف صفوان بن أمية يوماً يقول لقريش: «إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا تجارتنا، فما ندرى كيف نصنع بهم وهم لا يبرحون الساحل! وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامَّتُهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء؛ وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء»! فقال له الأسود بن المطلب: «تنكَّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق؛ فإنما هى أرض نجد وفَيَافٍ ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد». ودله على رجل من بنى بكر بن وائل يدعى فرات بن حيان ليدله على الطريق، فتجهز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم، وانطلقت القافلة وهى تظن

أن خبرها سيخفى على المسلمين. ولكن عيناً من عيونهم وقف على أمر القافلة، فأخبر بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فبعث رسول الله زيد بن حارثة فى مائة راكب من المهاجرين والأنصار، فاعترضوا القافلة عند «القَرَدة»، وهى ماء من مياه نجد، ففر رجالها حين فاجأهم زيد وصحبه، وتركوا العير وما عليها: فأخذها المسلمون غنيمة باردة. وكانت أول غنيمة قيمة غنمها المسلمون بلا عناء؛ فخمَّسها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قسمها بين أصحابه.

كانت هذه التجربة سبباً آخر من الأسباب القوية التى دفعت قريشاً إلى الجد فى تحديد موقفها من المسلمين، فلم يعد الأمر أمر كرامة وحسب، بل أصبح أمر حياة أو موت؛ فإما أن تَذِل قريش وتضعف أمام محمد وصحبه، وفى ذلك لا شك حَيْنُها وهلاكها؛ وإما أن تستعد لضرب الضربة القاصمة، فتحفظ حياتها وتسترد هيبتها. وكان رجال من قريش قد تشاوروا منذ غزوة بدر أن ترصد الأموال التى نجت بها العير لغزو محمد وصحبه، فاجتمع رأى قريش على أن تخصص لذلك كل ماربحت العير من أموال، وكانت فيما يقال خمسين ألف درهم. وهكذا صممت قريش، وأخذت تجمع قوتها وتعد عدتها لغزو المسلمين بالمدينة.

مناوشات

فى هذه الأثناء حدثت مناوشات بين المسلمين وبعض القبائل القريبة من المدينة، غنم المسلمون فيها بعض الغنائم، وأرهبوا الخارجين من هؤلاء البدو؛ فكلما علم رسول الله ﷺ بفريق من هؤلاء يجمعون له فاجأهم بأصحابه قبل أن يستعدوا، فبدد شملهم وفرقهم فى رءوس الجبال. من ذلك غزوة غَطفَان «بذى أمر» من ناحية نجد، فى ربيع الأول من السنة الثالثة، وغزوة بنى سُلَيم «بِبَحْران»، فى جمادى الأولى من هذه السنة.

ويعلل بعض المؤرخين ثورات هذه القبائل، بأنها كانت من القبائل التى تجنح إلى قريش أو تحالفها؛ ويعللها بعضهم بأن ثورتها إنما كانت دفاعاً عن حياتها، لأنها فى معيشتها كانت تعتمد كثيراً على ما تستفيده من تجارة قريش، وهى تمر بها فى الذهاب وفى الإياب، فلما قطع المسلمون على قريش طريقها، خشيت هذه القبائل على نفسها العنت والمشقة. وسواء أكان السبب هذا أم ذاك فقد كانت كلها فورات وقتية، لا تلبث أن تفور حتى تنطفئ؛ فلم تصرف المسلمين عن هدفهم، ولم تكدر صفو حياتهم، ولم تشغلهم عن اتخاذ الأهبة ودوام الاستعداد لمفاجآت قريش، أعدى عدوهم.